الحجامون والفصـــادون
نماذج من صورهم على الآثار العربية

الدكتور صلاح حسين العبيدي
كلية الاداب ـ جامعة بغداد

لعب أصحاب الحرف والمهن دورا بارزا في الحياة العربية الاسلامية من خلال ما قدموه من جهود وخدمات في مختلف الميادين ، وفي شتى المجالات فكان منهم الحمال والفلاح والحجام والنساج والزجاج والملاح والصـــفار والحائك وغيرهم .

وقد سبق ان قدمنا دراسة لشخصيتين حرفيتين هما « الحمـــال »[1] و « الفلاح »* وقد اخترت هذه المرة الكلام عن الحجام والفصاد ، مؤملا ان اتناول بقية أصحاب الحرف في أبحاث قادمة .

وقد استهوتنا هذه الشخصية الشعبية التي بقيت مع غيرها بعيدة عن متناول الباحثين والدارسين في الاثار العربية .

ومن هنا رأيت ان اتعرض لهذا الموضوع . أما معلوماتنـــا عن مهنـــة الحجامة أو الفصد وأصحابها فقد استقيناها من مصدرين ، المصدر الاول هو ما جاء في المراجع التاريخية . أما المصدر الثاني فهو ما جاء في المخطوطـــات العربية الاثرية .

---

١ ـ انظر مجلة كلية الاداب (جامعة بغداد) المجلد الاول العدد (٢١) سنة ١٩٧٧ ـ ص ٥٢٥ـ٥٣٩ .

(*) انظر ايضا العدد (٢٤) من المجلة المذكورة ص ٣٦٧ ـ ٣٩٤ .

ويجدر بنا ان نعرف شيئا عن الحجامة والفصد قبل ان نتناول اصحابها .
الحجامة هي المداواة والمعالجة باداة أشبه بالكأس ، يقال له المحجم يوضع على الجلد فيحدث فيه تهيجا ويجذب الدم أو المادة بقوة[٢] .

ويفهم من قول لابن القف[٣] « ان التحجم عند الاطباء على نوعين بشرط وبلا شرط والتي بغير شرط على نوعين بنار وبغير نار ، فالمادة الدموية المراد اخراجها لا تخلو ، أما ان تكون مستولية على الظاهر أو على الباطن أو عليهما أو فيما بينهما فأن كان الاول فاخراجها بالحجامة وان كان الثاني والثالث فاخراجها بالفصد وان كان الرابع فبالعلق » .

وقد أفادنا ابن القف[٤] نفسه « بأن الحجامة على نوعين ضرورية واختيارية والاولى هي المستعملة عند الحاجة والثانية لها شروط عشرة ، احدها ان يكون استعمالها في وسط الشهر ، فأن الاخلاط في هذا الوقت تكون ثائرة هائجة وثانيهما ان يكون استعمالها في الزمان المذكور في الثالثة من النهار ، وثالثها ان يكون استعمالها فيزمان الصيف ، ورابعها انيكون استعمالها فيمن كاندمه رقيقا وخامسها ان تشغل المعدة قبل استعمالها بشيء من الاشربة المقوية لها ، وسادسها ان يتجنب استعمالها فيما كان متخلخل البنية لكثرة ما يتحلل من بدنه ، وسابعها ان يتجنب استعمالها قبل سنتين وبعد ستين سنة وذلك لاستيلاء الغلظ على المادة في الوقتين المذكورين ، وثامنها ان يتجنب استعمالها عقيب الحمام ، وذلك لان الحمام يغلظ الجلد ويحوج الى شرط عميق لاخراج الدم، وتاسعها ان يتجنب استعمالها عقيب الجماع ، وعاشرها ان يتجنب استعمالها عقيب الحركة المفرطة خوفا من فرط التحليل وضعف القوة » .

---

٢ ـ انظر ابن ابي اصيبعة ـ موفق الدين ابو العباس الخزرجي ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء ـ ص ٥٦ هامش رقم (٤) .

٣ ـ ابن القف ـ ابي الفرج بن موفق :
كتاب العمدة في الجراحة ، ط ١ حيدر اباد بالدكن ـ جـ١ ص١٧٥ .

٤ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٧٦ .

ويستطرد في الموضوع نفسه قائلا « انه ينبغي ان يراعى في الضرورية والاختيارية امور ثلاثة . أحدهما مقدار الشرط ، وهو أن يجعل عدده وعمقه بحسب مقدار المادة وقوامها ، وهو انه متى كان المقدار متوفرا والقوام غليظا فينبغي ان يجعل الشرط كثير العدد عميقا ، ومتى كان العكس فبالعكس ، وثانيهما ان يدلك الموضع قبل الشرط ويعلق المحاجم عليه بغير شرط مرات لتنجذب المواد اخراجها اليه وثالثها ان يتجنب بعدها الامتلاء من الغذاء[٥] » .

اما بصدد الفصد فانه يذكر بأنه تفرق ارادي خاص بالاوردة بآلة مخصوصة[٦] .والعروق المفصودة على نوعين ، الشرايين أو ما تسمى بالعروق الضوارب والاوردة أو ما تسمى بالعروق غير الضوارب ، وفي فصد الشرايين خطر من وجهين أحدهما جرها وثانيهما ان الدم الذي تحويه الغالب عليه الجوهر الروحي لا المادة المريضة .

أما الاوردة فقد حصرت في اربعة وثلاثين في الرأس منها اثنى عشر ،وفي اليدين اثنا عشر وفي البطن عرقان ، وفي الرجلين ثمانية عروق وفي كل رجل أربعة[٧] .

وكما للحجامة شروط فأن للفصد شروط أيضا يذكرها ابن القف[٨] « بانها يجب التقيد بها وتطبيقها بشكل دقيق بالنسبة للفاصد والمفتصد ، فعلى الفاصد ان يكون عارفا بالتشريح ليعرف مسالك الاوردة واوضاعها وما يجاورها وان لا يفصد في مكان مظلم ليدرك العرق ويعرف كيف يضع المبضع ، وان يتعاهد تنقية دماغه ثم بصره بالاكحال ان احتاج اليها ، وان

---

٥ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٧٦ .
٦ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٧ .
٧ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٥ .
٨ ـ المصدر السابق ، جـ١ ص١٦٧ـ١٦٨ .

لا يقدم على فصد صبي ولا على شيخ كبير ولا على طامث الا بأذن أقاربها ولا على مملوك الا بأذن مولاه ولا على محبوس الا بأذن ولي امره ولا على من كانت معدته ضعيفة وكذلك كبده ولا على من كان مستعدا لانطلاق البطن والامراض رطبة ساذجة أو مادية ، وان يوسع الفصد في زمان الشتاء ، وعند كون السمنة مستحصفة والمواد غليظة ويضيقه في الصيف ، وان يكون مبضعه نقيا من الصدأ أو النمش ، وان يطيل زمان حبسه للعرق ، وان يديم تدليك العضد ويأمر المفصود بمسك شيء ثقيل ليظهر العرق وان يفصد العروق المفصلية طولا ان اراد تأخر التحامها وعرضا ان اريد تشفيها بسرعة وان يشد العضد بعصابة معتدلة العرض دقيقة ، واما اعتدال العصابة فأن الدقيقة تجر العضد وتؤلمه والعريضة لم يتمكن الشد بها ، وان لا ينظر الى وجه امرأة عند فصدها ولا يطيل زمان حبس عضدها وزندها ، وان يكون لطيف الانامل لا يعمل بها اعمالا خشنة وان يكون معه أدوية مهيأة لقطع الدم وان يكون دينا في دينه طاهرا في ذيله » .

أما عن أصحاب هذه المهنة فهم الحجامون والفصادون ، فالحجام كما جاء في لسان العرب[٩] « المصاص » ، يقال للحجام حجام لامتصاصه فم المحجمة والمحجم بالكسر الآلة التي يجمع فيها دم الحجامة عند المص » .

ومهنة الحجامة أو الفصد كانت معروفة منذ أقدم العصور ولكن كيفية معرفة الانسان لهذه المهنة لا تزال حتى اليوم يلفها الغموض ، والسبيل الى معرفة هذا الغموض جد عسير بل يكاد يكون مستحيلا ، فلسنا نعرف على وجه اليقين كيف اهتدى الانسان الى معرفة هذه الحرفة واين كان ذلك ومتى.

---

٩ ــ ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم : لسان العرب ، جـ١٢ ص١١٧ .

ومع ذلك فأن الاشارات الى وجود تأليف في هذا الحقل قد وصلت الينا ، حيث يذكر ان ابيوقراط[١٠] ألف كتابا في الفصد وان جالينوس وضع كتابا يتعلق بهذا الحقل ايضا[١١] .

وعرف العرب الحجامة والفصد في الجاهلية ، وجاء في شعرهم انهم كانوا يفصدون النوق لكي يحصلوا على دمها وقد ذكرت قصص متعددة حول دم الفصيد الذي كان يقدم طعاما للضيف بعد ان يجفف داخل امعاء الناقة ويشوى ويعد تقديمه للضيف من قبيل تكريمه[١٢] لان الدم كان مقدسا لديهم ، لذلك جرى تحريم عادة فصد الناقة في الاسلام[١٣] ، قال حاتم طي[١٤] يستنكر فصد الناقة ويدعو الى نحرها لا الى فصدها :

كذلك فصدى ان سألت مطيتي
دم الجوف اذ كل الفصاد وخيم

وقال ايضا[١٥] :

لا افصد الناقة من انفها
لكنني اجرها العالية

١٠ـ ابن أبي اصيبعة ـ المصدر السابق ـ ص٥٦ .

١١ـ المصدر السابق ص١٤٣ ، ١٤٨ ، ومن الجدير بالذكر ان جالينوس يذكر عن نفسه (ص ١٢٥ ـ ١٢٦) انه قصد مرتين .

١٢ـ ابن منظور : لسان العرب جـ٣ ص٣٣٦ .

١٣ـ ورد في القرآن الكريم قوله تعالى « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما اهل لغير الله به ، والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما اكل السبع الا ما زكيتم وما ذبح على النصب ... » .
الاية ٣ سورة المائدة

١٤ـ الاصفهاني ـ ابو الفرج علي بن الحسين
الاغاني : ٣٩١/١٧ وانظر البياتي عادل ـ كتاب ايام العرب قبل الاسلام لابي عبيدة ص٣٠٢ .

١٥ـ ابن الاثير ـ ابو الحسن علي بن محمد .
الكامل في التاريخ ٣٦٩/١ وانظر البياتي ـ المصدر السابق ص٣٠٣ .

وقال عارف الطائي[١٦] :

وقد يترك الغدر الفتى وطعـامه
اذ هو امسى جله من دم الفصـد

وقال زهير بن ابي سلمى في معلقته[١٧] وقد ذكر آلة الحجامة :

ينجمهـا قـوم لقـوم غرامـة
ولم يهريقـوا بينهـم ملء محجم

فالعربي في الجاهلية عرف فصد الناقة واهتدى الى هذه المهنة (الحجامة) بالنسبة للانسان ويؤيد ذلك وجودها في صدر الاسلام وورودها في الاحاديث النبوية الشريفة ، والا فليس معقولا ان تكون هذه المهنة قد انبثقت فجأة في صدر الاسلام دون ان يكون لها جذور في الجاهلية ، فمما روى عن الرسـول (ص) انه قال خير ما تداويتم به الحجامة والشونيز والقسط[١٨] ، وروى ابن عباس : احتجم النبي (ص) في رأسه من أذى كان به[١٩] .

وكذلك جاء ذكر الحجام في العصر الاموي ، فقد نقل الينا صـاحب كتاب الوزراء[٢٠] طريفة وقعت لحجام مع الحجاج بن يوسف الثقفي قـال : « القاضي ابو علي التنوخي قلت لابي الحسين بن هشـام فهـل تعرف خبر الحجام مع الحجاج ؟ قال نعم بلغنا ان الحجاج احتجم ذات يوم ، فلما ركب

١٦ـ نقائض جرير والفرزدق ١٠٨٣/ الاغاني : ١٢٨/١٩ .

١٧ـ الزوزني .
شرح المعلقات السبع .

١٨ـ الشريشي ـ ابي العباس احمد بن عبدالمؤمن :
شرح مقامات الحريري جـ٤ ص٢٠٨ . والقسط عود يجاء به من الهند يجعل في الدواء والبخور .

١٩ـ ابن عبد ربه .
العقد الفريد جـ٦ ص ٢٧٥ .

٢٠ـ الصابي : ابي الحسن الهلالي بن المحسن :
الوزراء ص١٢١ـ١٢٢ .

المحاجم على رقبته قال له : احب ايها الامير ان تخبرني بخبرك مع ابن الاشعث، كيف عصا عليك ، فقال له لهذا الحديث وقت اخر ، واذا فرغت من شأنك حدثتك ، فاعاد فسأله وكررها والحجاج يدفعه ويعده ويحلف له على الوفاء له ، فلما فرغ احضر الحجام وقال له انا وعدناك بأن نحدثك حديث ابن الاشعث معنا ، وحلفنا لك ونحن محدثوك يا غلام السياط فاتى بها فامر الحجاج فجرد وعلته السياط واقبل الحجاج يقص عليه قصة ابن الاشعث باطول حديث فلما فرغ استوفى الحجام خمسمائة سوط فكاد يتلف » .

ويفهم من هذه الرواية ان الحجام شخص كثير الكلام يتدخل في امور لا تعنيه وهي صفة من الصفات التي اتصف بها الحجامون على مر العصور ، مع ان المهنة تقتضي منه الصمت وتجميع الذهن في مهنته لخطورتها وان المحجوم في حالة نفسية لا تسمح له بالحديث والانبساط فيه ، وتدلنا هذه الرواية أيضا على ان مكان الحجامة يكون في أغلب الاحيان في رقبة المحجوم ويؤكد الشعراء في شعرهم هذه القاعدة فقد جاء على لسان أحد الشعراء[٢١] قوله :

وحاجم في الكأس اجرى دما
من ساق ساقينا باشفاق
لكنه خالف في شرطه
وحكم الكأس على الساق

وذكر اسم الحجام في هذين البيتين كان الشاعر يقصد توريه في ذلك بأن مكان الحجامة يكون في رقبة المحجوم ، بينما هنا خالف مكان الحجامة ووضع الكأس على الساق بدلا من ان يضعه على الرقبة .

٢١ـ خزانة الادب وغاية الارب ـ مكتبة البيان ودار القاموس الحديث للطباعة والنشر بيروت ص ٣٣٢ .

اما في العصر العباسي فقد لعبت هذه الطائفة من الحرفيين دورا بارزا ، في حياة المجتمع العباسي ما جعل اسمهم يتردد على السنة المؤرخين والشعراء وكان حظ أصحاب هذه الحرفة من هؤلاء مختلفا ، فقد نظر البعض ممن عرفوا بالعلم والفقه والمعرفة الى هذه الحرفة واصحابها نظرة تقدير واحترام ، وقد تكون نظرة هؤلاء العلماء والفقهاء متأتية من كونهم يدركون ان هذه المهنة لم تخرج الى الوجود الا لحاجة اساسية طبية تتعلق بحياة الناس وصحتهم ، اما ما يرافق المهنة من سلبيات فهم لا يفرطون بحاجة الناس بسبب ذلك وانما هذا حكم اخر ومن هنا يأتي تثمين هؤلاء العلماء لها وفعلا ظهر للحجامة أثر طبي واضح يمر بنا بعد قليل .

وقد اعتبر بعضهم وجود هذه المهنة من الضرورات الاجتماعية[٢٢] بل ذهب الغزالي الى أبعد من ذلك حين جعل وجودها من فروض الكفايات فهو يقول « فلا تعجب من قولنا ان الطب والحساب من فروض الكفايات ، فأن اصول الصناعات ايضا من فروض الكفايات كالفلاحة والحياكة والسياسة بل الحجامة والخياطة فانه لو خلا البلد من حجام تسارع الهلاك اليهم وحرجوا بتعريض انفسهم للهلاك[٢٣] » .

لقد نشطت مهنة الحجامة في العصر العباسي ومما يدل على نشاطها كثرة عدد الحجامين الذين اخذوا ينتشرون في ارجاء الدولة العباسية وقد قدر ابن

٢٢ـ اخوان الصفاء : رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء جـ١ ص ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ . (بيروت ١٣٦٧هـ ـ ١٩٥٧ م) .

٢٣ـ احياء علوم الدين ـ مطبعة احمد البابي الحلبي ـ القاهرة ١٢٩٦ هـ ـ جـ١ ص٢٣ . وانظر كتاب العامة في القرن الخامس ص ٥٦ لمؤلفه بدري محمد فهد .

الفقيه عدد الحجامين وأصحاب الحمامات في بغداد بثلثمائة الف وستين الف حمامي وحجام[٢٤] .

وعلى الرغم مما في هذا القول من مبالغة فانه يعكس لنا حقيقة واضحة وهو ايمان الناس بالحجامة والحجامين . ولم تقتصر النظرة الى اهمية الحجام على اناس معدودين بل عمت المجتمع العباسي كله ، فقد كان الخلفاء في طليعة من آمن بمهنة الحجامة وجدواها وكذلك الحكام ورجال الدولة وعامة الناس وعرف عن الرشيد انه كان يفصد في كل عام مرتين ، وكان جبرائيل بن بختيشوع طبيبه يتقاضى من الخليفة (١٠٠ر٠٠٠) مائة الف درهم عن هذه العملية[٢٥] .

وجاء أيضا انه عرض للوزير ـ يحي بن القاسم المغربي قولنج صعب أقام لاجله في الحمام واحتقن بعده حقن وشرب عدة مرات فلم ير صلاحا فانفذ رسولا الى المتطبب ـ صاعد بن بشر بن عبدوس ـ فلما رآه على هذه الحال ، استدعى فاصدا ففصده واخرج له دما كثير المقدار وسقاه ماء البزور ولعابا وسكنجبيلا ونقله من حجرة الحمام الى الخيش .. فبرأ برا تاما[٢٦] .

٢٤ـ ابن الفقيه ابو بكر أحمد بن محمد بن اسحق الهمذاني ـ من كتاب البلدان ـ مخطوطة مصورة عن مخطوط مشهد ـ نشرها أوثارفار لامويتيج تكيتيشفيلي حول تاريخ مدينة بغداد .
وانظر الشيخلي : صباح ابراهيم سعيد :
الاصناف في العصر العباسي ص٨٩ .

٢٥ـ القفطي ـ جمال الدين ابي الحسن بن يوسف :
تاريخ الحكماء ـ مكتبة المثنى ببغداد ـ مؤسسة الخانجي ص١٢٣ .
وانظر : البدري ـ عبداللطيف :
الفصد في الطب القديم ص٩٢ .

٢٦ـ ابن ابي اصبيعة ـ المصدر السابق ص٣١٣ـ٣١٤ .
وانظر البدري ـ المصدر السابق ص٩٢ .

وبلغ من اهتمام العباسيين بالاحتجام ان جعلوا له عيدا خاصا مثل بقية الاعياد (اطلقوا عليه عيد الاحتجام) وفيه يهدى أصحاب المحتجم له الهدايا ويعمل اجود الطعام[٢٧] .

كما كانت الهدايا تقدم في الايام الاعتيادية الى الخلفاء العباسيين وغيرهم في مناسبات الاحتجام والفصد ويأتي ذلك من قبيل الابتهاج بالشفاء من هذه العملية الصغرى التي تعتبر في نظرهم مهمة جداً ، وهذه الهدايا هي نوع من التهنئة بنجاح هذه العملية كما نفعل نحن اليوم في مثل هذه المناسبات فقد روي ان اليزيدي اهدى الى الرشيد يوم فصد جام بلور وشمامات غالية[٢٨] . وان ابراهيم بن المهدي اهدى المأمون عندما فصد جارية معها عود ورقعة فيها بيتين من الشعر[٢٩] .

وفي مرة ثانية اهدت اليه « رباح » اترجة عنبر عليها مكتوب بماء الذهب بيتين من الشعر فامر لها بمال كثير[٣٠] .

وقيل ان المعتصم افتصد مرة فاهدت اليه « شمائل » صينية عقيق عليها قدح اسبل عليهما منديل مطيب مكتوب عليه بالعنبر في كل ربع منه بيت شعر[٣١] . وذكر ايضا ان المعتصم اعتل يوما فاشار عليه بختيشوع بالفصد فاخرجت اليه هدايا الفصد وكان فيما اخرج طبق صندل مكتوب عليه بجزع كما يدور عليه شمامات مسك وعنبر[٣٢] .

٢٧ـ متز : ادم :
الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري
(دار الكتاب العربي ـ بيروت) ص ٣٠١ .

٢٨ ـ الجاحظ : المحاسن والاضداد (ط١ ـ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤هـ) ص١٤٥ .

٢٩ـ المصدر السابق ص٢٤٤ .

٣٠ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

٣١ـ المصدر السابق ص٦٤٥ .

٣٢ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

ولعل من اطرف ما وصلنا من هدايا الفصد ، هي الهدية التي قدمها ابي دلف الى عبدالله بن طاهر يوم فصد فقد جمع أبو دلف جميع ما اصاب في السوق من الورد وارسله هدية له[٣٣] .

وازاء ما تقدم فقد وجدت نظرة اخرى حاول اصحابها النيل من الحجامين والفصادين ، فالبعض ينظر الى مهرة الصناع على انهم من طبقة السوقة ، اسوة باللصوص[٣٤] ، بينما يضع الدمشقي[٣٥] مهرة الصناع وارباب الحرف في ادنى طبقات الناس ، اما الشريشي[٣٦] فقد عكس تصوره لهم بانهم من ارذال الناس وسفلتهم ، وورد من أقوالهم اربعة كانت في سفل بني اسرائيل وصارت في سفل العبيد وستكون في سفل الاحرار الحياكة والحجامة والدباغة والكناسة .

ومن الصفات التي الصقت بالحجام بانه فضولي كثير الكلام حتى عدوا هذه الصفة وقفا على أهل الحجامة[٣٧] .

ومن صفات الحجامين الاخرى اللؤم الذي من معانيه البخل قال المتنبي[٣٨] يهجو كافور الاخشيدي :

من اية الطرق يأتي نحوك الكرم
اين المحاجم يا كافور والجلم

٣٣ـ المصدر السابق ص٢٤٦ .

٣٤ـ جروينبام : جوستاف
حضارة الاسلام ـ ترجمة عبدالعزيز جاويد ـ القاهرة ١٩٥٦م ص٢٧٤ .

٣٥ـ الدمشقي ـ ابو الفضل جعفر بن علي :
الاشارة الى محاسن التجارة ـ مطبعة المؤيد بدمشق جـ١ ص ١٦٤ .

٣٦ـ الشريشي ـ المصدر السابق طـ١ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١ .

٣٧ـ المصدر السابق جـ٤ ص٢٢٤ .

٣٨ـ شرح ديوان المتنبي (جـ٤ ص ٢٨٠) . وضعه عبدالرحمن البرقوقي . الناشر دار الكتاب العربي . بيروت .

وبيت المتنبي هذا يدلنا على حقيقة مفادها ان مهنة الحجامة كان يعاب عليها صاحبها بانه لم يكن كريما فكأنما قال له انك بخيل ولئيم لانك حجام.

وليست هذه الصور هي كل ما ورثناه عن صفات الحجامين ، فنحن نقرأ مثلا ان الحجام كان يتصف بالفقر حتى صارت هذه الصفة مضرب الامثال فكان يقال (افرغ من حجام ساباط) .

ولهذا المثل قصة اوردها الميداني[٣٩] مفادها ان أحد الحجامين كان يلازم ساباط المدائن يحجم الجند بدانق نسيئة وربما مرت عليه برهة لا يقربه فيها أحد فكان يبرز امه عند تمادي عطلته فيحجمها لكيلا يقرع بالبطالة فما زال يحجمها حتى نزف دمها وماتت فصار مثلا ، قال الشاعر :

مطبخه قفر وطباخه افرغ من حجام ساباط

واورد لنا أبو هلال[٤٠] العسكري ابياتا من الشعر وفيها ما يشير الى صفة الفقر التي كانت تلازم الحجامين :

اذا كان مال من ينطق العجم وحالي فيكم حال من حاك أو حجم
فاين انتفاعي بالاصالة والحجي من العلم والحكم
وهل احد في الناس يبصر حالتي ولا يعلن القرطاس والحبر والقلم

ان مهنة الحجامة بحد ذاتها ليست مصدرا لتدر ربحا كبيرا ، فهي من المهن الشعبية ذات الدخل المحدود مثلما يكون العامل والفلاح في ذلك المجتمع فقيرا يكون الحجام ومن على شاكلته فقيرا أيضا .

٣٩ـ الميداني : مجمع الامثال جـ٢ ص٨٦ .

٤٠ـ العسكري : أبو هلال .
الاوائل (طبع المغرب) ص٥ ويراجع ديوانه .

ان مثل هذه الاحكام القاسية بشأن الحجام والفصاد نقف منها في كثير من التحفظ لانها جاءت مطلقة وغير معززة بالادلة التي يعتمدها الباحث في هذا المجال ولم يكن هؤلاء المؤرخون منصفين مع هذه الطبقة من الناس لانهم بينوا المظاهر السلبية التي اتصف بها الحجامون دون ان يبينوا لنا النواحي الايجابية فيهم ، وربما كانت هذه الصفات التي الصقت بالحجامين تعود الى غياب الضوابط التي تحكم عملهم مما فسح المجال لغير المختصين بهذه المهنة ان ينتظموا فيها ويدعوا امتهانهم لهذه الحرفة فأساءوا الى سمعتها نتيجة لجهلهم بممارستها ولدينا ما يشير الى وجود أمثال هؤلاء المدعين فقد (جاء ان صلاح الدين دخل دمشق وخرج يودع الحاج ، ثم رجع فحمّ ففصده من لا خبرة عنده فخارت القوة ومات قبل الرابع عشر ووجد الناس عليه شبيها بما يجدونه على الانبياء)[٤١] ومن الذين ماتوا بالفصد الخليفة العباسي القائم بامر الله فقد ذكر السيوطي[٤٢] ان الخليفة المذكور (افتصد ونام فانحل موضع الفصد وخرج منه دم كثير فاستيقظ وقد انحلت قوته ثم توفي) .

اضف الى ذلك سببا اخر ، وهو ان الحجامين بحكم مهنتهم وتنقلهم بين البيوت واحتكاكهم بالاسر المتباينة ربما كانوا مدعاة لتسرب اخبار شخصية لتلك الاسر مما جعل الناس ينظرون اليهم بعدم الثقة والاطمئنان والاحتقار احيانا .

وافادتنا بعض الابيات الشعرية بتعليل اخر للسبب الذي غض من مكانة الحجام فهي تتضمن ذما لشخص يقول له الشاعر فيها انك لست مؤهلا لان تكون فارسا بل انك حجام ، قال الشاعر[٤٣] :

٤١ـ ابن ابي اصيبعة ـ عيون الابناء ص٦٨٨ .

٤٢ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء والمؤمنين (المطبعة المنيرية) ص ٢٩٧ .

٤٣ـ العسكري : هلال :
كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء (جزءان) تحقيق : د . عزت النصر ـ دمشق ١٣٨٩هـ مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق جـ٢ ص٧٢٧ .

احق بذاك من سيفي محلى
ومن فرس يحمحم في اللجام

وقد افادنا الشعر في التعرف على بعض الامور التي تتعلق بالحجامة قال الشاعر(٤٤) :

لانت بجونه وبمشرطها وبالجلمين والموسى الهذام
وقرز فيه كرسفه ودهن تطوف به وتصرخ في الانام

والبيتان المتقدمان يوضحان بعض الحقائق التي تتعلق بهذه المهنة فهي عددت لنا مثلا الادوات التي يستعين بها الحجام في مهنته فذكرت لنا الجونة والمشرط والجلم والموسى والقرز والكرسفة والدهن .

ومن أدوات الحجامين الاخرى الفامة المحجمة وربما سميت المحاجم الملازم والملاحج والتشريح جونة الحجام(٤٥) .

وكثرا ما يطلب المحجومون من الحجامين طلبات معينة وتؤدي تلك الطلبات احيانا الى استغاظة الحاجم وتدل هذه الطلبات على الاحتراس وعدم الثقة بالحجام نفسه ، وبادواته التي يشك المحجوم احيانا بنظافتها وأنها لا تسبب له العدوى بالامراض لان هذه الادوات تستعمل في حجامةأشخاص كثيرين وان عدم العناية بتعقيمها وتنظيفها ربما تسبب دون شك من حصول مضاعفات كثيرة قد تؤدي في بعض الاحيان بحياة المحجومين . ويذكر التوحيدي ان أبا علقمة دعا بحجام فقال له : انق غسل المحاجم واشدد قضيب الملازم ، وارهف ظبات المشارط واسرع الوضع وعجل النزع وليكن شرطك وخزا ومصك نهزا ولا تردن اتيا ولا تكرهن ابيا ، فوضع الحجام محاجمه في جونته ومضى عنه(٤٦) .

٤٤ـ العسكري ـ المصدر السابق جـ٢ ص٧٢٧ والجلم معروف ـ جلمت الشعر اذا اخذته بالحلم . والقرز ما يجعل فيه الدهن .

٤٥ـ المصدر السابق جـ٢ ص٧٢٧ .

٤٦ـ التوحيدي : أبو حيان .
الامتاع والمؤانسة ـ تحقيق احمد امين واحمد الزين ـ مطبعة لجنة التاليفذ والنشر ـ القاهرة ١٩٧٣هـ ـ ١٩٥٧م ـ جـ٢ ص٢٨٤ .

ولم تقتصر مهنة الحجام على حجم المرضى بل شملت كذلك اعمال الحلاقة أيضا[٤٧] . ويذكر انه كان في مكة في القرن الخامس الهجري اسواقا فيها عشرون دكانا متقابلة يشغلها جميعا حجامون لحلق شعر الرأس[٤٨] وكثيرا ما كان الحجامون يتواجدون في الحمامات لهذا الغرض .

لقد كان التعاون قائما بين أصحاب هذه المهنة فقد ورد الينا عن شيخ حجام انه رفض أن يأخذ اجرة حجامته من حجام لانهم « أهل صناعة واحدة وهم لا يأخذون من أهل صناعتهم اجرة ابدا[٤٩] »ولا تزال هذه العادة جارية بين أصحاب الحرف والمهن الى وقتنا الحاضر .

وقد وصلت الينا اخبار تدل على اعتزاز أهل المهنة بمهنتهم ويبلغ هذا الاعتزاز في بعض الاحيان الى تعصب أرباب المهنة الواحدة ضد غيرهم، فالحائك اذا رأى تقصيرا من صاحبه أو سوء حذق أو خرقا قال له : يا حجام ، والحجام اذا رأى تقصيرا من صاحبه قال له يا حائك[٥٠] .

ومن مظاهر التعصب لدى هذه الطائفة من الحرفيين انتظامهم فيما يسمى بالنقابات اسوة بارباب الحرف الاخرى وكانت تجتمع عند قبر سلمان الفارسي في المدائن نقابات الحلاقين ، والمشاطين والحجامين وذلك في منتصف القرن الثالث الهجري[٥١] .

٤٧ـ الشريشي ـ شرح مقامات الحريري جـ٤ ص٢٢٣ .

٤٨ـ الشيخلي : صباح ـ المصدر السابق ص ٧٦ .

٤٩ـ المصدر السابق ـ ص ١٤٤ .

٥٠ـ الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر :
رسائل الجاحظ : تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م ـ ص١٢٦ـ١٢٧)
وانظر الشيخلي : المصدر السابق ص١٣٢ـ١٣٣ .

٥١ـ الشيخلي : المصدر السابق ص٦١ .

ولم تقتصر مهنة الحجامة على الرجال فقط بل شاركت في ذلك النساء أيضا فقد وصل الينا ما يفيد ان بعض النسوة مارسن هذه المهنة[٥٢] .

وقد عثر على رسوم للحجام على بعض الاثار العربية الاسلامية التي تعود الى العصر العباسي وبخاصة المخطوطات المصورة والخزف .

ولا نكاد نجد في الاثار العربية صورا كما في صور مخطوط مقامات الحريري من حيوية ولمحات تعبر عن شخصية الحجام ، ولعل رسوم الواسطي التي أوضحت مشاهد بالصور كانت أصدق تعبير وهي خير وثيقة مادية ساعدتنا في التعرف على الحجام وملابسه وادواته بطريقة لم تتمكن من تحقيقها عن طريق النصوص التاريخية والادبية التي جاء على ذكرها المؤرخون . ففي المقامة السابعة والاربعين[٥٣] من مقامات الحريري المؤرخة سنة ٦٣٤هـ يذكر الحارث فيها انه في أحد الايام أحس بحاجته الى حجام فبعث بغلامه ليأتيه به ، ولما تأخر الغلام ولم يأت بالحجام ذهب الى الحارث بنفسه اليه فشاهد حوله زحام كبير وامامه صبي قد تهيأ للحجامة ، وقد صور الواسطي هذه الحادثة في ثلاثة صور ، فالصورة الاولى (شكل ١) تمثل حانوتا الى جهة اليمين ممثلا في واجهة جلس عندها الحجام وقد مد رجله اليمنى الى الامام مشيرا اليها بيده اليسرى وكأنه يخاطب شخصا اخر ، واما الشخص المخاطب فهو يمثل غلام الحارث بينما وقف الى جانبه عدد من الرجال ، والى الجهة اليمنى من التصويرة نشاهد خزانة من أربعة أدراج صف عليها الحجام أدواته التي يستخدمها في الحجامة ويظهر المشرط واضحا من بين تلك الادوات والى جانب المشرط نلمح اداة اخرى تبدو انها القرز الذي يوضع فيه الدهن وفضلا عن آلات ومواد اخرى لا تظهر لنا واضحة في الصورة .

٥٢ـ البيهقي : ابراهيم بن محمد :
المحاسن والمساوىء ـ تحقيق محمد ابو الفضل ابراهيم ـ مطبعة النهضة (القاهرة ١٩٦١م) جـ١ ص٢٤١ـ٢٤٢ .

٥٣ـ الشريشي ـ المصدر السابق جـ ٤ ص٢٠٨ .

واجب قبل مغادرة هذا الحجام الى حجام اخر ان اشير الى مسألة جديرة بالاشارة وهي الملابس التي يرتديها هذا الحجام وتشير الصورة الى ان الملابس مؤلفة من عمامة ودراعة والعمامة التي فوق رأس الحجام ملفوفة بصورة متقاطعة تنسدل منها عذبة الى الخلف ، أما الدراعة فتظهر من النوع الفضفاض كما توحي بذلك الطيات الكثيرة التي تزينها .

والتصويرة الثانية (شكل ٢) التي يظهر فيها الحجام محفوظة هي الاخرى في المكتبة الاهلية في باريس ضمن مخطوط مقامات الحريري وتبرز لنا هذه الصورة التي تمتد عبر صفحين عملية الحجامة وما يستعين به الحجام في عمله ، وكذلك طريقة العمل عندما وقف ابو زيد السروجي يخاطب جمهورا من الناس قد احاطوا به وهو يشرح لهم سوء حاله مما اضطره ان يقبل على عملية حجامة لغلام كشف عن مظهره استعدادا للعملية والناس وقفوا ينظرون بين مستغربين ومشفقين لانه بذلك انما يريد ان يستدر عطفهم لانه يحجم غلاما فقيرا وانه بلغ به الحال من الفقر ان يحجم لاناس لا قدرة لهم على الدفع فهو بهذه الطريقة يحمل جمهور الحاضرين ليتبرعوا له بشيء مقابل عمله الانساني تجاه الغلام . ويتوسط الجمهور خزانة بدرجين صف عليهما مختلف وسائل وادوات المهنة ويبدو المحجم واضحا من بين هذه الادوات وكذلك الصندوق الذي تحفظ فيه تلك الادوات .

وترينا صورة ثالثة (شكل ٣) من نفس المقامة نموذجا اخر لعملية حجامة تجرى فعلا حيث كشف طفل عن ظهره وجلس ابو زيد السروجي يحجمه والناس يحلقون به ينظرون اليه وقد ظهرت الخزانة والادوات في صفين واضحة عليها ومن بينها مشرطان وقرز وبعض لفائف القماش ، قد تكون من الكتان والقطن وهي من ضرورات العمل .

ويظهر الحجام أو الفاصد لدينا في مثال اخر وارد على كسرة من الخزف (شكل ٤) يرجع تاريخها الى حوالي القرن السابع الهجري(١٣م) محفوظة في متحف برلين ، ترينا متخصصا في عملية فصد الدم وتبدو المريضة وهي سيدة وقد تحول رأسها بعيدا الى الجهة الاخرى حتى لا ترى الحجام وهو يؤدي ، اجراءات العملية وعلى العكس من ذلك نرى الى جانبها صبية تتطلع باهتمام الى عملية الحجامة .

ويرتدي الحجام ملابس مؤلفة من عمامة بطيات متعددة ذات اشرطة زخرفية تزين بعضها نقط صغيرة والبعض الاخر أشكال مؤلفة من مستطيلات أما ملابس البدن التي يرتديها الحجام فهي عبارة عن جبة ذات زخرفة هندسية .

وهكذا نخرج من هذه الرحلة العلمية بصورة واضحة المعالم بينة القسمات عن الحجام والفصاد ، وعن مهنة الحجامة ووسائلها وأدواتها عبر مرحلة مزدهرة من عصورنا الذهبية ، حيث كان العالم العربي الاسلامي مركز اشعاع لجميع العالم . وان هذه النماذج تمثل قدرة الامة التي استطاعت ان تحقق لها منهجا علميا وتضع نظاما خاصا لمهنة الحجامة في الطب . وارجو ان أكون قد وفقت الى جمع النماذج المتوفرة ومقارنتها بما ورد من اخبار عن هذه المهنة محاولا ان استعين بالنظرة العلمية موفقا بينها وبين ما ورد في كتب الادب والشعر عن مهنة الحجامة .

شـــکل (۱)

شـــکل (۲)

شـــكل (٣)

شـــكل (٤)

المصـــادر

ابن الاثير : أبو الحسن علي بن محمد الشيباني .

١ ـ الكامل في التاريخ .

اخوان الصفا .

٢ ـ رسائل اخوان الصفاء وخلان الوفاء (بيروت ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م) .

الاصفهاني : أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد الكاتب .

٣ ـ الاغاني . حققه لجنة مطبعة دار الكتب بالقاهرة (١٣٤٥ ـ ١٣٨١ هـ) مطبعة التقـدم .

أبن أبي اصيبعه : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي .

٤ ـ عيون الانباء في طبقات الاطباء . شرح وتحقيق الدكتور نزار رضـا منشورات مكتبة الحياة (بيروت ١٩٦٥م) .

البدري . عبداللطيف .

٥ ـ الفصد في الطب القديم مجلة المجمع العلمي العراقي .

البياتي . عـادل .

٦ ـ كتاب ايام العرب قبل الاسلام لابي عبيدة . مطبعد دار الجاحظ . (بغـداد ـ ١٩٧٦م) .

التوحيدي : أبو حيان .

٧ ـ الامتاع والمؤانسة . تحقيق أحمد امين واحمد الزين . مطبعـة لجنـة التأليف والنشر (القاهرة ـ ١٣٧٣هـ ـ ١٩٥٣م) .

الجاحظ : أبو عثمان عمر بن بحر .

٨ ـ رسائل الجاحظ : تحقيق عبدالسلام محمد هارون (القاهرة ١٣٨٤ هـ ـ ١٩٦٤ ، ١٩٦٥ م) .

خسرو . ناصر .

٩ ـ سفر نامه . ترجمة يحي الخشاب . ط٢ . دار الكتـاب الجـديد (بيروت ـ ١٩٧٠م) .

الدمشقي : أبو الفضل جعفر بن علي .

١٠ـ الاشارة الى محاسن التجارة . مطبعة المؤيد (دمشق ـ ١٣١٨هـ) .

الشريشي : أبي العباس احمد بن عبدالمؤمن القيسي .

١١ـ شرح مقامات الحريري . الطبعة الاولى (١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م) .
الشيخلي : صباح ابراهيم سعيد .
١٢ـ الاصناف الاسلامية في العصر العباسي ، نشأتها وتطورها .
(منشورات وزارة الاعلام العراقية) .
الصابي . أبو الحسن (أو الحسين) الهلال بن المحسن .
١٣ـ رسوم دار الخلافة . تحقيق ميخائيل عواد . مطبعة العاني (بغداد ـ ١٣٨٣هـ /١٩٦٤م) .
١٤ـ الوزراء . تحقيق عبدالستار احمد فراج . دار احياء الكتب العربية (١٩٥٨م) .
العبيدي . صلاح .
١٥ـ « الحمال » نماذج من صورة على الاثار العربية الاسلامية . مجلة كلية الاداب . جامعة بغداد . المجلد الاول (العدد ٢١ سنة ١٩٧٧م) ص ٥٢٥ ـ ٥٣٩ .
العسكري . أبي هلال العسكري .
١٦ـ كتاب التلخيص في معرفة اسماء الاشياء (جزءان) تحقيق الدكتور عزت حسن (دمشق ١٣٨٩هـ) مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق.
الغزالي . أبو حامد محمد بن محمد .
١٧ ـ احياء علوم الدين . مطبعة احمد البابي . (القاهرة ـ ١٢٩٦هـ)
ابن الفقيه . ابو بكر احمد بن محمد بن اسحاق الهمداني .
١٨ـ من كتاب البلدان . مخطوطة مصورة عن مخطوط مشهد . نشرها أوتار فار لامومينيج تكيتسيشفيلي . حول تاريخ مدينة بغداد
ابن القف . ابي الفرج بن موفق الدين يعقوب بن اسحق .
١٩ ـ العمدة في الجراحة . ط اولى حيدر اباد بالدكن .
ابن القفطي . جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف .
٢٠ـ تاريخ الحكماء . مكتبة المثنى بغداد . مؤسسة الخانجي .
٢١ ـ ابن منظور . جمال الدين محمد بن مكرم .
٢٢ ـ لسان العرب . دار صادر . دار بيروت (بيروت ١٩٥٦م ـ١٣٧٥هـ)
الهمداني : أبو الفضل احمد بن الحسين المعروف ببديع الزمان .
٢٣ـ شرح مقامات بديع الزمان الهمداني . شرح محمد محي عبدالحميد . مطبعة المدني (القاهرة ـ ١٣١٨هـ ـ ١٩٦٢م) .

التفسير العلمي للقرآن
معالمه وضوابطه

قدم البحث الى ندوة الدراسات الاسلامية لاتحاد الجامعات العربية في جامعة ام درمان الاسلامية ـ الخرطوم

الدكتور / عبدالقهار داود عبدالله
الاستاذ المساعد بقسم الدين بكلية الاداب
جامعة بغداد .

١٩٧٨/٢/١١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد : فقد انزل الله تعالى القرآن الكريم هداية للناس معجزة قائمة ظاهرة دائمة تبيانا لكل شيء ما ترك من امر الا اصل اصوله وابان معالمه ، (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[1] ومن هنا تلمّس كل ذي علم علمه منه في مختلف العصور في تعريف الناس باحكامه وحكمه واغرب البعض في التفسير خاصة من تتبع علم الكون والطبيعة في آيات القرآن الكريم علما بان القرآن قد ابان اصوله واوضح منهاجه واشار الى بعض حقائقه النادرة .

---

(١) الانعام آية ٣٨ .

لقد توسع الباحثون في الاخذ من القرآن بالحاق النظريات العلميـــة المحتملة به توسعا أذهب بالحكمة في هدايته واعجـــازه حتى غدت بعض التفاسير وكانها كتب للعلوم الطبيعية وليست تفسيرا للقرآن الكريم .

ونحن في هذا البحث نتلمس منهج الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه في التفسير ثم التابعين لنتبين معالم التفسير في عهدهم حتى اذا بانت معـــالم البحث دققنا في مسالك الذين نظروا في آيات الله نظرة معينة مرتبطة بالنظريات العلمية الطبيعية توضح منهجهم وتثبت الاصول العامة المنضبطة التي تجنب الباحث مواطن الشطط والزلل وتحقق له تلمس الهداية والاعجاز في بحثه .

اسأل الله عز وجل ان يجعل هذا البحث سببا في هداية الامة الى الايمان بالله ومنارا للعلم ورحمة من الله ومغفرة .

تمهيـــد :

يجدربناقبل ان نتحدث عن التفسير العلمي ومنهجه وآراء موافقيه او معارضيه انوضح حقيقة العلم وصلته بالدين .

العلـــم في اللغـــة : ــ

(والعلم نقيض الجهل عَلِمَ علما وعَلُمَ هو نفسه ورجل عالم وعلم من قوم علماء فيهما جميعا قال سيبويه : يقول علماء من لا يقول الا عالما قال ابن جني لما كان العلم قد يكون الوصف به بعد المزاولة له وطول الملابسة صار كانه غريزة ولم يكن على اول دخوله فيه ولو كان كذلك لكان متعلما لا عالما فلما خرج بالغريزة الى باب فَعُلَ صار « عالم » في المعنى كعليم فَكُسِّرَ تكسيره ثم حملوا عليه ضده فقالوا جهلاء كعلماء وصار علماء كحلماء لان العلم مَحْلَمَةٌ لصاحبه)[٢]

---

(٢) لسان العرب لابن منظور ــ دار صادر بيروت ــ ١٩٥٦ مادة علم .

والعلم في لسان الشرع العام معرفة الله تعالى وآياته وافعاله في عباده وخلقه (انه سبحانه اخبر انه خلق الخلق ووضع بيته الحرام والشهر الحرام والهدى والقلائد ليعلم عباده انه بكل شيىء عليم وعلى كل شيىء قدير فقال تعالى (الله الذي خلق سبع سموات ومن الارض مثلهن يتنزل الامر بينهن لتعلموا ان الله على كل شيء قدير وان الله قد احاط بكل شيء علما)[٣] فدل على ان علم العباد بربهم وصفاته وعبادته وحده هو الغاية المطلوبة من الخلق والأمر .

التفسير العلمي : هو بيان معنى الآيات القرآنية بتفسيرها تفسيرا مرتبطا بحقائق العلوم الكونية وماشابهها وفق القواعد المشهورة في تفسير القرآن الكريم[٤] .

الحقيقة العلمية : هو امر متعارف على وقوعه حقيقة وتمّ التوصل اليها عن التجربة العلمية او الملاحظة[٥]

النظرية العلمية : توضيح مقترح لحالة معينة غالبا ما تكون قابلة للنقاش بمقارنتها باقتراحات ثانية متعلقة بمواضيع اصبح متعارفا عليها لحقائق عائمة .[٦]

هل العلم علم الشريعة فقط ؟

المتبصر في آيات الله تعالى المدرك لمعانيها يعلم يقينا ان العلم في مفهومه العام يطلق على العلم الشرعي وهداية الناس اصالة كما يدل على العلوم الاخرى ، قال الله تعالى (أأنتم اشد خلقا ام السماء بناها رفع سمكها

---

(٣) الطلاق آية ١٢ .

(٤) ابن قيم الجوزية مفتاح دار السعادة دار الكتب العلمية بيروت ص٥١ .

(٥ ، ٦) World Dictionary (Patrick Hanks, Ed. Encyclopedia Lebanin) pp. 1626 572.

قسواها)[٧] وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس الى قوله لآيات لقوم يعقلون)[٨] .

فبدأ بذكر خلق السموات وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب)[٩]

وهذا كثير في القرآن فالارض والبحار والهواء وكل ما تحت السموات بالاضافة الى السموات كقطرة في بحر ولهذا قلّ ان تجيء سورة في القرآن الا وفيها ذكرها اما اخبارا عن عظمتها وسعتها واما اقساما بها واما دعاء الى النظر فيها واما ارشادا للعباد ان يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها واما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وانه الله الذي لا اله الا هو واما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام اجزائها وعدم الفطور منها على تمام حكمته وقدرته)[١٠]

وقد رد كثير من الباحثين المسلمين ومفكريهم الدعوى الباطلة التي اشاعها الجهلة او الحاقدون في الغرب والشرق وتبعهم من اضلوا من المسلمين في ان العلم الذي اثبته القرآن الكريم وحث عليه ورغبت فيه احاديث النبي صلى الله عليه وسلم انما يقصد به العلم الشرعي فقط دون بقية العلوم الاخرى (العالم الاسلامي يمكنه النهوض والرقي واللحاق بالامم العزيزة الغالبة اذا اراد ذلك المسلمون ووطنوا انفسهم عليه ولا يزيدهم الاسلام الا بصيرة فيه وعزما ولن يجدوا لانفسهم حافزا على العلم والفن خيرا من القرآن الذي فيه : ـ

---

(٧) النازعات آية ٢٨ .
(٨) البقرة آية ١٦٤ .
(٩) آل عمران آية ١٩٠ .
(١٠) ابن قيم الجوزية مفتاح السعادة وص١٩٦/١٩٧ .

(هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون)[11]

والذي فيـه (وزاده بسطة في العلم والجسم)[12]

والذي فيه (وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم)[13]

والذي فيه (شهد الله انه لا اله الا هو والملائكة واولوا العلم قائمـا بالقسط)[14] وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سكار) هذا الذي بالمغرب قد الف كتابا في الطعن على الاسـلام وهو الذي يكتب في مجلة (مراكش الكاثوليكية) ان المراد بلفظة العلم في القرآن هو العلم الديني ولم يكـن المقصود به العلم مطلقا لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وايجابـه للتعليم . وقد اتى (سكار) من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحق ان يرد عليه لما فيه من المكابرة في المحسوس . وكل من تأمل في مواضع هذه الآيات المتعلقة بالعلم وبالحكمة وغيرها مما يحث على السير في الارض والنظر والتفكر يعلم ان المراد هنا بالعلم هو العلم على اطلاقة متناولا كل شـيء وان المـراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس وهي غير الايات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة ويعزز ذلك الحـديث النبوي الشهير (اطلبوا العلم ولو في الصين)[15] .

---

(١١) الزمر آية ٩ .

(١٢) البقرة آية ٢٤٧ .

(١٣) آل عمران آية ٧ .

(١٤) آل عمران آية ١٨ .

(١٥) الحديث موضوع اورده ابن الجوزي في الموضوعات فقال عنه (هـذا حديث لا يصح عـن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن حبـان هذا الحديث باطل لا اصل له / الموضوعات لابـن الجـوزي تحقيـق عبدالرحمن عثمان / نشر محمد عبدالمحسن / المدينة المنورة / ط١ ص٢١٦ .

وفي بعض الايات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي ان المراد بالعلم علم الكون لانه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الايات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى في سورة فاطر (الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف الوانه كذلك ، انما يخشى الله من عباده العلماء)

اي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الالوان وما فيها من اسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام .

رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن وعظمنا من قدر المدنية المسيحية ووقرنا منها ورددنا القائلين من الاوربيين بان النصر انية كانت وقفا لغير المدنية وسببا لسقوط اليونان والرومان الى غير ذلك ، فكان سيكار هذا ان نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الاسلام مالو جئنا نرده لم نستغن عن ايراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحي مما نأبى ان نتعرض له لانه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن الذوق ان نغيظ اخواننا المسيحيين من اجل رجل اسمه (سيكار) او غيره من هذه الطبقة من الدعاة والمبشرين هذا زائدا الى ما رأيناه في كلامه من الخلط والخبط والمغالطة التي من قبيل قوله : ان العلم المقصود في القرآن ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق وانما هو العلم الديني فقط لان القرآن لا يهمه شيء من علوم الدنيا فمكابر كهذا لا يستحق الجواب ثم علمنا ان المسيو سيكار هذا هو من مستخدمي فرنسة في الرباط بادارة الامور الاسلامية وانه هو والمسيو لويس برنيو مدير التعليم هناك والقومندان ماركو مدير قلم المراقبة

على الجرائد والمطبوعات والقومندان مارتي مستشار العدلية الاسلامية ـ ورهط آخرون هم الذين لعبوا الدور الاهم في قضية العمل لتنصير البربر وما كان استخدام فرنسة لهم مهمات كلها عائدة للاسلام الا على نية نقض كل ما يقدرون عليه من بناء الاسلام بالمغرب وستذوق فرنسا ولو بعد حين وبال ما عملته وتعمله من التعرض للدين الاسلامي الذي تعهدت في معاهداتها باحترامه)[١٦] .

لقد حث الاسلام على العلم بمختلف علومه واصنافه ابتداء بعلم الشريعة الذي لا تستقيم الحياة الا به الى جميع العلوم الاخرى النافعة التي يتصور وجودها ويدل على ذلك ما كان عليه العلماء المسلمون في علوم الطب والكيمياء والهندسة وغيرها مما استفاد منه علماء الغرب والشرق خاصة العلم التجريبي الذي ما عرفه اليونان ولا غيرهم الى ان ارسى قواعده علماء المسلمين اعترافا من علماء اوروبا وغيرهم الذين يعتبرهم العالم الان الحجة الظاهرة في العلم وتطوره قال المؤرخ درابر الامريكي (تأخذنا الدهشة احيانا عندما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد الا في زماننا كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال انواعها فان هذا الرأي كان مما

---

(١٦) شكيب ارسلان لماذا تأخر المسلمون دار مكتبة الحياة بيروت ص١٤١ـ ١٤٦ .

والغريب في بعض علماء المسلمين ومفكريهم انهم يتركون ذكرالحق والواقع الذي عليه المسيحيون والمسيحية التي ارتضوها لانفسهم لا مسيحية المسيح الحقة ـ يفعلون ذلك حفاظا على شعور المسيحيين ان يمس او يلامس ولا يتوانى المسيحيون علماؤهم ومفكروهم ومبشروهم عن الافتراء على الاسلام واهله بأسلوب دني يترفع عنه سفلة العامة من الناس ـ الكاتب .

يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به الى ابعد مما ذهبنا فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن في اشكالها)[١٧]

وقد نبه علماء المسلمين الى ان هذا لا يعني تدرج خلق الانسان وتطوره من حيوانات ادنى الى القرد الى الانسان في حسن تقويمه وكذا بالنسبة للمعادن لا يعني ان الذهب حصيلة تدرج من الحديد الى النحاس ثم صار الذهب المعهود ولكن كان هناك ترقي في الصفات اذ جعل الله في القرد صفات من التقليد والانتباه ارقى من حيوانات اخرى دونه كما قال الخازني (وهم لم يعنوا بقولهم هذا انه تقلب في صدر الانواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا) .[١٨]

لا تناقض بين الاسلام والعلم : اذا كان الامر كما ذكرنا فمن اين جاءت مقولة تناقض الدين مع العلم ؟ هذا ما سنبينه ونكشف الذين افتروه على الاسلام وغايتهم من ذلك .

لقد وقفت الكنيسة المسيحية ورجال الدين المسيحيين من العلم موقف الكافر به المكفر لعلمائه ومفكريه حتى وصل الامر بهم الى ان امروا بحرق غاليلو لانه تحدث عن الكون والعلم فكان ذلك سبباً في زرع الحقد في نفوس العلماء والمفكرين في العالم ضد الدين المسيحي والحرص على حربه يقول علي بن رضوان من رجالات القرن الحادي عشر (عندما اخذت صناعة الطب بالتأخر بسبب صدوف المسيحية عن العلوم الطبيعية قام اوريبا سيوس وبولس الزيحيني يؤلفان كناشهما)[١٩]

(١٧ ، ١٨) الاسلام دين العلم والمدنية /ط١ ـ القاهرة ص ١٢٤ .

(١٩) الكناشات بالضم والشد الاصول التي تتشعب منها الفروع ـ القاموس المحيط / الفيروز آبادي مؤسسة فن الطباعة ـ المكتبة التجارية القاهرة مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ـ فرانتزروز نتال ترجمة انيس فريحة ـ دار الثقاة بيروت . ص ١٦٦ .

(ثم كان من جراء احتضان الكنيسة هذه التصورات المنحرفة ومن جراء احتضانها كذلك لكثير من المعلومات الخاطئة والناقصة عن الكون فما هو شأن البحوث والدراسات والتجارب البشرية ان وقفت موقفا عدائيا خشنا من العلماء الطبيعيين حين قاموا يصححون هذه المعلومات البشرية الخاطئة او الناقصة ولم تكتف بالهجوم الفكري عليهم بل استخدمت سلطانها المادي في التنكيل بكل المخالفين لتصوراتها المدنية والعلمية على السواء)[٢] ان التصور المسيحي والكنسي للفكر والعلم جعل علماء الغرب قاطبة يقفون موقفا فيه شك وريبة من كل فكر ديني أو تصور الهي ظنا منهم ان كل الاديان تنهج ذلك النهج وتقف نفس الموقف من العلم والعلماء (ومنذ ذلك التاريخ والى اليوم اتخذ الفكر الاوربي موقفا عدائيا لا من الافكار والتصورات الكنسية التي كانت سائدة يومذاك بل من الافكار والتصورات الدينية على الاطلاق بل تجاوز العداء للافكار والتصورات الدينية الى منهج التفكير الديني بجملته)[٢١]

ومما لا شك فيه ان الديانة المسيحية لم يكن من طبيعتها مسايرة النهضة العلمية الحديثة في سيرها العلمي المطرد وقفزاتها الواسعة الجبارة لانها لاتملك في ذاتها منهج العلم ولا قواعده وبواعثه .

تقول دائرة المعارف البريطانية (ان المعلومات الكونية واللاهوتية والعلمية التي وردت في الانجيل لا تخرج عن كونها مسائل جانبية لا تستحق النظر والاعتبار اذا وضعت تحت منظار العلم الحديث[٢٢])

أو على الاقل عزله عن الحياة ...

يقول العلامة الفرد وايت هيد « Alfred White Head » « ما من مسألة ناقض العلم فيها الدين الا وكان الصواب بجانب العلم والخطأ حليف الدين)ـ كذلك

(٢٠ ، ٢١) خصائص التصور الاسلامي سيد قطب ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ص١٣ .

(٢٢) دائرة المعارف البريطانية ص٦٣٦ .

انظـــر المقتطفـــات التي نقلهـــا الاســـتاذ / احمـــد غلوش من مجلة (Daily Grphic) بتاريخ ٦ يناير ـ بهذا الخصوص[٢٣] فهذه نظـــرة العلماء المسيحيين للمسيحية واعتقادهم بمعاداتها لكل علم وتقدم بل وصل الامر باللورد Headly الى ان يقول : (ان معظم الديانات التي يعين بهـــا الغرب ليس الا حصيلة خرافات العصور الوسطى والقرون المظلمة) ولننظـــر ما قاله علماء الغرب في الاســـلام .

ولنسرد في هذه المناسبة رأى المؤرخ الانجليزي ادوارد كيبسون حيث قال (ان موحدا ذا رأي فلسفي لا يتردد لحظة في قبول وجهات نظر الاســـلام فالاسلام اعلى من تطورنا الفكري اليوم)[٢٤] .

ولئن كانت هذه مشكلة المسيحية في ذاتها وذات رجال الكنيسة في عدم مواكبة ومناهضة العلم في مسيرته فان الاســـلام بني على العلم في اول آية نزلت على نبينا المصطفى صلى الله عليه وسلم (اقرأ باسم ربك الذي خلـــق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلـم)[٢٥] . وقد شجع الاسلام العلم ورفع مكانته وايدته آياته وحث على التفكر والتدبر والاعتبار والسير وفق ما تقتضيه قواعد العلم والعقل .

قال تعالى (قل انظروا ماذا في السموات وما تغنى الايات والنذر عن قوم لا يؤمنون)[٢٦] .

وقال تعالى :

(انما يخشى الله من عباده العلماء)[٢٧]

---

(٢٣) الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ـ محمدعلي يوسف ـ القاهرة ـ ط١ ص ١٢ .

(٢٤) الدين والعلم ـ المشير أحمد عزت باشا ترجمة وتصحيح عبدالوهـاب عزام طاهر ـ القاهرة ـ ط١ ص١٢٥ .

(٢٥) العلق الآيات ١ـ١٥ .

(٢٦) يونس آية ١٠١ .

(٢٧) فاطر آية ٢٨ .

وقال تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار)[٢٨] . وقد وردت الآيات القرآنية في لفظ (علم) واشتقاقه في ٢٠٦ مئتين وستة مواضع ووردت في لفظة العلم وحده في ثمانية وتسعين موضعا من كتاب الله تعالى . وجعل الله تعالى العلم سببا في الايمان وتركه مع الضلالة سببا في الكفر والهوى قال تعالى (ولئن اتبعت اهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)[٢٩] وقال ايضا (ولئن اتبعت اهواءهم من بعدما جاءك من العلم انك اذا لمن الظالمين .)[٣٠] .

لقد وضع الاسلام منهجا علميا لمختلف العلوم يظهر جليا في المعارف المختلفة التي اختص بها علماء المسلمين واستفاد منها استفادة علمية عميقة علماء الغرب واعترفوا بها وخاصة العلم التجريبي فان (اول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الامم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة والا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم ما لم تؤيدها التجربة حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن احد فلاسفة الاوربيين ان القاعدة عند العرب هي (جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا) وعند الاوربي الى ما بعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي (اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما) فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال وماذا اعقب من سوء المآل[٣١]

يقول احد الاوربيين (لا ادري كيف اعطانا الاسلام في مدة قرنين عددا من الفلكيين يطول سرد افراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى

---

(٢٨) آل عمران آية ١٩٠ .

(٢٩) البقرة آية ١٢٠ .

(٣٠) البقرة آية ١٤٥ .

(٣١) الاسلام دين العلم والمدنية ـ محمد عبده ص١٢٣ـ١٢٥ .

عشر قرنا في اوربا ولم تمنحنا فلكيا واحدا) ثم يقول (وقد شعر علي بن رضوان من رجالات القرن الحادي عشر الميلادي بهذا الخطر الذي يهدد تلك الحضارة الخطر الناجم عن احلال تأليف الموسوعات السطحية محل البحث العلمي المركز فانه في كتابه (النافع في تعليم صناعة الطب) يعطينا تاريخا مختصرا لعلم الطب بالتأخير بسبب صدوف المسيحية عن العلوم الطبيعية قام اوريبا سيوس وبولس الايجينى يؤلفان كناشيهما) .

وفي مجال النهج العلمي ايضا تظهر لنا عبقرية علماء المسلمين فيما كتبوه مما ينسجم مع ادق قواعد البحث العلمي (ونظرة حنين الى منزلة العلماء والادباء الذين كان يترجم لهم تظهر لنا جليا انه كان يميز بين التأليف العلمي الرفيع (او شبه العلمي الرفيع) وبين التأليف لعامة الناس والواقع ان عامة علماء المسلمين كانوا يشعرون بهذا التفاوت في النشاط الفكري الموجه للعلماء والمفكرين ولعامة الناس وكل ما كان الكتاب علياً رفيعا يستهدف جماعة العلماء كانت عناية المؤلف بذكر مصادره ومراجعه ادق واشمل مما لو كان كتابا لعامة الناس والادب الكلاسيكي والعصري كان ولا يزال من حيث الجودة والاتقان يتأثر بمثل هذه الاعتبارات اما التأليف الطبي فقد كان اصحابه في غنى عن ذكر مصادرهم التي اخذوا عنها لشعورهم انهم يدونون من الامور الطبية ما قد اصبح حقائق علمية معروفة وهذا يصدق ايضا على التأليف في سائر العلوم الطبيعية اما اصحاب الكتب التاريخية فانهم كانوا شديدي الحرص على ذكر المصادر التي يأخذون عنها فان السبكي الاب مثلا كان ينصح المؤرخين بان يذكروا المصدر كل مرة اتوا فيها على ذكر خبر تاريخي[٣٢] هذا ما قاله علماء الغرب فرانتز وامثاله في العلوم التي ارسى علماء المسلمين قواعدها وكانوا سببا في نمائها وتطورها ويذهب علماء المسلمين الى ابعد من هذا حين يبرزون معالم البحث العلمي ويقيدون اغراضه

---

(٣٢) مناهج العلماء المسلمين ـ فرانتزروزنتا (ص١٦٥-١٦٦) .

حتى لا يكون التأليف عبثا وتسويدا للورق وركضا وراء الشهرة دون تمحيص أو تدقيق كما نجد في عصرنا هذا ، وقد عبر العلموي في كتابه (المعيد) عن هذه الفكرة بتفصيل اوسع (قال صاحب الاحوذي ، ولا ينبغي لمصنف يتصدى الى تصنيف ان يعد الى غير صنفين اما ان يخترع معنى او يبتدع موضعا ومبنى وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد للورق والتحلي بحلية السرق)[٣٣] وهنا يذكر العلموي قولا آخر كأنه تعليق وتفسير لقوله السابق (وهذا لا ينافي ما ذكره بعضهم من ان رتب التأليف سبعة استخراج ما لم يسبق الى استخراجه وناقص في الوضع يتم نقصه وخطأ يصح الحكم فيه ومستغلق باجحاف الاختصار يشرح او يتمم بما يوضح استغلاقه وطويل يبدد الذهن طوله يختصر من غير اغلاق ولا حذف لما يخل حذفه بغرض المصنف الاول ومتفرغ يجمع اشتات تبدده على انه اولى في تقريب العلم للمتعلمين من الذي تقدم في حسن وضعه وتركيبه)[٣٤] [٣٥]

مما تقدم يتبين لنا بوضوح ان الاسلام قد رعى العلم النافع ونما في ظله ورسم له المنهج العلمي السليم الى ان وصل به الى قمة التطور والتقدم . ولذا فهم علماء المسلمين ونحن معهم في هذا الفهم في ان القرآن هو حق من الله والحقائق الكونية والطبيعية حق من الله ايضا لانها خلقه وابداعه فلا يمكن ان تناقض حقيقة علمية ثابتة نصا قرآنيا .

التفسير العلمي للقرآن :

التفسير العلمي للقرآن :

التفسير العلمي : ــ هو ربط الحقائق العلمية الثابتة للعوم الكونية والطبيعية المختلفة بمعاني الايات القرآنية بدلالة الالفاظ اللغوية على المعاني في المشهور من المأثور والمعهود في اللغة .

(٣٣ ، ٣٤) المصدر السابق ص١١٤ـ١١٧ ، ١٧٤ـ١٧٥ .

(٣٥) لست ادري اذا كانت الاشارة هنا الى ابى بكر بن العربي توفي ١١٤٨هـ . مؤلف شرح صحيح الترمزي وعنوان شرحه هذا (عارضة الاحوذي) . انظر (المترجم) .

لقد اتسم التفسير العلمي للقرآن في العصور المختلفة بظهور باحثين ربطوا الآيات القرآنية بنظريات علمية متغيرة واستفاضوا في اغرابهم بتفسير الايات القرآنية مقحمة مع البحوث العلمية العامة وكأنهم مصرون على ربط كل ما توصل اليه العلم في حقول الظنيات بالقرآن الكريم كتاب الهداية والاعجاز وذهب آخرون بسبب هذا الاسراف والشطط والاغراب الى ان ينحوا باللائمة على هذا المنهج ويبينوا آثاره الفكرية السيئة على تفسير القرآن • علما بان السلف الصالح فقهوا اضواء القرآن الكريم على العلوم بقواعدها وبعض حقائقها العلمية بعد استقصاء يقيني للعلوم المختلفة •

قال الامام الشافعي رحمه الله (وما تنزل بالانسان نازلةالا والقرآنيدل عليها نصا او جملة •) (٣٦)

وقد تحدث عن ذلك علماء من السلف أظهروا حقيقته وبينوا بعض ضوابطه وقيدوه كالامام الغزالي الحجة والسيوطي وابى الفضل المرسى وغيرهم وسنعرض لآراء البعض الذين اشتهروا بذلك •

حجة الاسلام الغزالي : وممن نهج هذا النهج العلمي السليم وأكد شمول القرآن لكل قواعد العلم واثبت بعض حقائقه الامام (أبو حامد الغزالي) الذي أورد ذلك في كتبه سواء في الاحياء أو في غيره ولكنه بسط المسألة بوضوح في كتابه جواهر القرآن والامام الغزالي لا يطلق كلامه اعتباطا دون تمحيص وهو الذي جند قلمه وفكره لنشر الاسلام وتحطيم العقائد الباطلة وتفنيد الاراء الزائفة وهم له بالمرصاد يتصيدون مواطن الضعف فيه ان وجدت فهو يقول (ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعددها ليست أوائلها خارجة عن القرآن فان جميعها مقترنة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى وهو بحر الافعال وقد ذكرنا انه بحر لا ساحل له وان البحر لو كان مدادا لكلماته لنفد البحر قبل ان تنفد فمن افعال الله تعالى وهو بحر الافعال مثلا الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن ابراهيم (واذا مرضت فهو يشفيني) •

---

(٣٦) اصول التشريع الاسلامي علي حسب الله ، القاهرة ، ط ص ١٤٥

وهذا الفعل الواحد لا يعرفه الا من عرف الطب بكماله وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى (الشمس والقمر بحسبان) وقال (وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب)[٣٧] وقال (وخسف القمر وجمع الشمس والقمر)[٣٨] وقال (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل)[٣٩] وقا (والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم)[٤٠] . ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكوير أحدهما على الاخر الا من عرف هيئات تركيب السموات والارض وهو علم برأسه . ولا يعرف كمال معنى قوله (يا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم الذي خلقك فسواك . فعد لك في أي صورة ما شاء ركبك)[٤١] الا من عرف تشريح الاعضاء من الانسان ظاهرا وباطنا وعددها وانواعها وحكمتها ومنافعها وقد أشار القرآن في مواضع اليها وهي من علوم الاولين والاخرين وفي القرآن مجامع الاولين والاخرين .

وكذلك لا يعرف معنى قوله (سويته ونفخت فيه من روحي) مالم يعلم التسوية والنفح والروح ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق وربما لا يفهمونها ان سمعوها من العالم بها ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الافعال لطال ولا تمكن الاشارة الا الى مجامعها فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الاولين والآخرين)[٤٢] .

---

(٣٧) يونس آية ٥ .

(٣٨) القيامة آية ٨ ، ٩ .

(٣٩) الحج آية ٦١ .

(٤٠) يس آية ٣٨ .

(٤١) الانفطار ٦ .

(٤٢) جواهر القرآن ص ٣٢ـ٣٤ . منشورات دار الافاق الجديدة ـ بيروت.

ومهما قيل فيما ذهب اليه الامام الغزالي انه توسع فانه قد ذكر ما يدل على قصور الخلق في استيعاب بعض العلوم حين قال آنفا (ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق وربما لا يفهمونها ان سمعوها من العالم بها) فقد عقب على ذلك صاحب قصة التفسير (ولا شك ان هذا توسع في القول والاستنباط لان الاصل في القرآن انه كتاب هداية وتشريع لا كتاب علم وتشريح) ولا أدري كيف لا يكون احتواء القرآن على علوم لم تعرفها البشرية الا قريبا ولا تزال مجهولة لديها طريقا للهداية يفهم كل من القرآن على قدر ادراكه ومبلغ علمه ودليلا مع الادلة الكثيرة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم الامي الذي لم يكن له من العلوم الا في نطاق ما يعلمه قومه من مسائل بسيطة في الملاحة وغيرها . وقد أوضح الامام الغزالى هنا وجوب التخصص لمن يفسر آيات القرآن في علم من العلوم كل في الآيات التي تخص علمه فضلا عن توفر شروط المفسرين في معرفة معاني القرآن وهذا ما ابتعد عنه كثير ممن تصدى للتفسير العلمي في العصر الحاضر حيث افرطوا في الكلام عن الآيات في كل علم مع جهلهم لابسط قواعد اصول هذا العلم.

الجلال السيوطي – وممن نهج منهج الغزالي ونحا نحوه في القول بشمول القرآن لكل قواعد العلوم العالم المشهور الجلال السيوطي فقد وجد بثاقب فكرة وتبحره في علوم القرآن ومؤلفاته المشهورة توحى بنظرة عميقة وأصيلة مشيرا الى ذلك في كتابه « الاتقان في علوم القران » لكنه كثير ويوضح مقصده في كتابه « الاكليل في استنباط التنزيل » ويدلل على ما يقوله من الكتاب والسنة وأقوال الصحابة المشهورين :–

فمن الآيات قوله تعالى (ما فرطنا في الكتاب من شيء)[٤٣] .

وقوله تعالى (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)[٤٤] .

---

(٤٣) الانعام آية ٣٨ .

(٤٤) النمل آية ٨٩ .

ومن الاحاديث ما أخرجه الترمذي وغيره ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ستكون فتن قيل وما المخرج منها ؟ قال كتاب الله ـ فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم[٤٥] وما اخرجه ابو الشيخ عن ابى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ان الله لو أغفل شيئا لاغفل الذرة والخردلة والبعوضة)[٤٦] ومن الاثار ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال (من أراد العلم فعليه بالقرآن فان فيه خبر الاولين والآخرين)[٤٧] .

وما أخرجه ابن ابى حاتم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال (انزل في القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء لكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن)[٤٨].

أبو الفضل المرسي ـ وهذا عارف عالم سمت روحه عن امور الدنيا وتربى على يديه مريدون تتلمذوا عليه نظر في القرآن الكريم فبهره واستقصى معانيه فحيرته فافصح عن اعجابه بالكتاب العزيز والبحر الغزير ينبوع من ماء الحقيقة يروى كل هذه النفوس على مر الدهر دون أن يعرفوا كل أسراره وان كانوا يعلمون ان الله الذي انزله قد أودع فيه سر الحياة المتجددة لا يدرك من ينهل منه الا وكأنه لم يكن قد ذاق حلاوته من قبل وهذا سر رباني أودعه الله في القرآن الكريم مما يميزه عن كل الكتب السماوية وغيرها .

قال الشيخ أبو الفضل المرسي في تفسيره (جمع القرآن علوم الاولين والآخرين بحيث لم يحط بها علما الا المتكلم به ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلاف ما استأثر به سبحانه وتعالى ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة واعلامهم مثل الخلفاء الاربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون

---

(٤٥) الاتقان في علوم القرآن ـ السيوطي ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ط٣ ٢/١٣٥/١٣٦ .

(٤٦) الاكليل ص ٢ ـ القاهرة ـ مصطفى البابي الحلبي ـ ط١ .

(٤٧) الاتقان ٢/١٣٦ .

(٤٨) الاكليل ص٢ .

باحسان ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا وحمل الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه)[٤٩] .

وقد ذكر طرفا من العلوم منها الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة وذلك انما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى (وكان بين ذلك قواما)[٥٠] وعرفنا فيه ما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى (شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس)[٥١] ثم زاد على طب الاجسام بطب القلوب وشفاء الصدور هذا ما بينه المتقدمون مع التقييد الذي أوردوه في اختصاص المفسر بالعلم الذي وردت الآيات في بيان حقائقه وأصوله العامة .

بعد ايرادنا لاقوال الائمة والعلماء من السلف في التفسير العلمي وبسطنا حججهم وسطرنا ما ستندوا عليه من الادلة الشرعية ووجهنا مرادهم نأتي الى الآراء والاتجاهات في العصور التي تلتهم وفي العصر الحديث خاصةحيث تقدم العلم تقدما واضحا وأعجب الناس بثمراته وسعوا وراءه في حقيقته وفرضيته فصار صبغة هذا العصر وحجة هذا الجيل ، انقسم الباحثون الىفريقين فريق منع التوسع فيالتفسير العلمي والجري وراء النظريات العلمية القابلة للتغيير والاقتصار على الحقائق العلمية وقواعد البحث العلمي وترك العلم ينمو ليقدم الخير للناس والتأكيد على هداية القرآن الكريم للبشرية الى حياة انسانية فاضلة وفريق اخر ظن أن التوسع في التفسير العلمي سبب في ايمان الناس بالقرآن الكريم وقربهم من الله عز وجل ولهذا غلب على تفاسيرهم وبحوثهم

---

(٤٩) التفسير والمفسرون ـ محمدحسين الذهبي ـ دار الكتب الحديث القاهرة ـ ط١ ١٤٤/٣ .

(٥٠) الفرقان آية ٦٧ .

(٥١) النحل آية ٦٩ .

ألقرآنية صبغة النظريات العلمية والقوانين الطبيعية وأمثلة كثيرة من التفاعلات الكيمياوية والفيزياوية وغيرهما[٥٢] .

المؤيدون للتفسير العلمي :

الامام فخرالدين الرازي : هو أبو عبدالله محمد بن حسين القرشي الطبرستاني الاصل الشافعي المذهب المفسر المتكلم الاصولي المتطبب عرف بفهمه العميق واطلاعه الواسع وذكائه الظاهر في تلقي العلوم المختلفة والفنون المتعددة وقد ألف سبعين كتابا ثلاثة منها بالفارسية وابتدأ بثمانية أخرى فلم يتمها وهو صاحب التفسير المعروف « مفاتيح الغيب » ويبدو أن منهجه في هذا التفسير قد أثار كثيرا من العلماء في زمانه وبعد وفاته فوصل ببعضهم الحد الى أن ينفي التفسير في كتابه « مفاتيح الغيب » حيث قال فيه (كل شيء فيه الا التفسير) وفي ذلك مبالغة ولكن ذلك قيل بسبب استفاضة الرازي في العلوم الطبيعية وغيرها استفاضة مفرطة فهو يصدر احكاما عامة في تفسير بعض الآيات كأن يقول لو اتبعت كل دقائق هذه السورة أو الآية لبلغت الف مسئلة مثلا وأكثر ما كان اسهابه واطالته فيما يتعلق بالسموات والكواكب والآراء الفلسفية اليونانية وغيرها دون تمحيص[٥٣] أو تدقيق فأدى به ذلك الى اعترافه بهذا الخطأ في وصيته قبل موته : (الاول فاعلموا أني كنت رجلا محبا للعلم فكنت أكتب في كل شيء لا أقف على كميته وكيفيته سواء كان حقا أو باطلا غثا أو سمينا)[٥٤] ودفعه ما كان يشعر به في نفسه من هذا الافراط في ذكر الآراء المختلفة المختلطة الى أن يطلب من الله العزيز الرحمة والعفو عما فعله (وأقول ان علمت أني أردت تحقيق باطل أو ابطال حق فافعل ما أنا أهله وأن علمت مني أني ما سعيت الا في تقرير ما أعتقدت أنه هو الحق وتصورت أنه الصدق فلتكن رحمتك مع قصدي لا مع حاصلي فذاك جهد المقل فأنت

---

(٥٢) الذهبي التفسير والمفسرون ٣/١٤٤ .

(٥٣) انظر مقالة محمد رشيد رضا في المنار ج/٧ .

(٥٤) فخرالدين الرازي مفاتيح الغيب ج١ ـ ل وسأرمز له الرازي ـ المطبعة البهية المصرية ط١ ـ القاهرة .

أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة)[٥٥] وقد تحدث الى الباحثين الذين يقرأون كتابه أن يدعوا له اذا أصاب وان يحذفوا ما أخطأ فيه ان كان الخطأ يقينا .

فيقول (فان طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه على سبيل التفضل والانعام والا فليحذف القول السيء فاني ما أردت الا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر والاعتماد في الكل على الله تعالى)[٥٦] .

فمن الاطالة في ذلك تفسير قوله تعالى (خلق الانسان من نطفه فاذا هو خصيم مبين)[٥٧] فتحدث عن النطفة وتكوينها من فضلة الهضم الرابع في تفصيل عن حالات الهضم وتكوين الدم ويتدرج حتى يصل الى القول بأن الله خلقها لما كان يدعى الطبيعيون من سلطة الطبيعة في الخلق « وحيث لم يكن الامر كذلك علمنا ان المقتضى لحدوث الابدان الحيوانية ليس هو الطبيعة بل فاعل مختار وهو يخلق بالحكمة والتدبير والاختيار »[٥٨] .

ومع هذا فله تفسيرات جيدة في آيات كونية اخرى .

طنطاوي جوهري والجواهر : من الذين برزوا في التفسير العلمي وكان لهم القدح المعلى فيه صاحب تفسير (الجواهر) وبالاطلاع على هذا التفسير نجد أن صاحبه قد دفعه الحماس المتدفق والعاطفة النبيلة مع الجهل عند المسلمين بالعلم الى أن يذكر الآية القرآنية فاذا وجد لها تعلقا بأي علم من العلوم الحديثة والقديمة ربط بها كل ما وصل الى علمه من النظريات والاقوال بتفصيل جعل ينسيك أنه تفسير للقرآن بل تحسبه كتابا للكيمياء أو الطب أو الفلك ويرجح أن يكون هذا النهج في التفسير القرآني هو الذي حدا بكثير من الكتاب والعلماء والمفسرين وكل المعنيين بالدراسات القرآنية الى انكار

---

(٥٥) المصدر نفسه ج١ – م .

(٥٦) ج ١ – د .

(٥٧) النحل آية ٤ .

(٥٨) الرازي ج ١٩ ص٢٢٤ .

التفسير العلمي دون تمييز بين هذا النهج المضطرب وبين النهج المعتدل الذي يعنى بما تتحمله الآيات من معان مرتبطة بالحقائق العلمية ولا ننكر أن صاحب هذا التفسير كان ذا نية حسنة ومقصد خير فيما ذهب اليه وان أخطأ السبيل فذلك لان غايته كانت الرد على الفكر المادي الالحادي الذي شاع في عصره وابتدره شباب قومه فكان يبغى بذلك ردهم الى الله وتثبيت من آمن منهم على عقيدة الاسلام وحظيرة الايمان .

يتضح لنا ذلك في مقدمة تقسيره موضحا الاسباب التي دعته الى أن ينهج هذا النهج ويسلك هذا المسلك (الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين أما بعد فاني خلقت مغرما بالعجائب الكونية معجبا بالبدائع الطبيعية مشوقا الى مافي السماء من جمال ومافي الارض من بهاء وكمال آيات بينات وغرائب باهرات شمس تدور وبدر يسير ونجم يضيء وسحاب يذهب ويجيء وبرق يتألق وكهرباء تحترق ومعدن بهي ونبات سني وطير يطير ووحش يسير وانعام تسري وحيوان يجري ومرجان ودر وموج يمر وضياء في مخارق الاجواد وليل داج وسراج وهاج وكتاب من العجائب مسطور في لوح الطبيعة منشور وسقف مرفوع ان في ذلك البهجة لذوي البصائر ونورا وتبصرة لصادقي السرائر) الى أن يقول .

(وها أنذا اليوم اوالي التفسير مستعينا باللطيف الخبير مؤملا بما وقر في النفس أن يشرح الله به قلوبا ويهدي به أمما وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكونية واني لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الامة بهذا الدين وينسج على منوال هذا التفسير المسلمين وليقرأن في مشارق الارض ومغاربها مقرونا بالقبول وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الارضية الشباب الموجودون وليرفعن الله مدنيتهم الى العلا وليكونن هذا الكتاب داعيا حثيثا الى درس العوالم العلوية والسفلية وليقومن من هذه الامة من يفوقون الفرنجة في الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات كيف لا وفي القرآن من آيات العلوم ما يربو

على سبعمائة وخمسين آية فاما على الفقه فلا تزيد آياته الصريحة عن مائة وخمسين آية ولقد وضعت في هذا التفسير ما يحتاجه المسلم من الاحكام والاخلاق وعجائب الكون واثبت حقائق معاني الآيات البينات في الحيوان والنبات والارض والسموات (ولتعلمن) أيها الفطن ان هذا التفسير نفحة ربانية واشارة قدسية وبشارة رمزية أمرت بها بطريق الالهام أيقنت أن له شأنا سيعرفه الخلق وسيكون من أهم أسباب رقي المستضعفين في الارض (ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز)[٥٩] .

ومع كونه يسهب اسهابا[٦٠] فيما ورد من الآيات الكونية والعلمية لكن الغريب انه يقحم الآيات الاخرى بمعان معينة ويربطها بالمسائل الكونية والنظريات العلمية فهو عند تفسيره لقوله تعالى (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) يقول :

(أن الله عز وجل ذكر في هذا المقام العلوم الكونية والكتب السماوية وبدأ بالثانية فذكر منها التوراة والانجيل والقرآن وثنى بالعوالم العجيبة من الارض والسماء وتصوير الاجنة في الارحام وانت خبير ان العلوم أما من الوحي الصادق وأما من الحكمة العقلية والمشاهدات الطبيعية فالاولى للعموم والثانية للخصوص :ثم القسمين قد يكون العلم فهما مشوبا بالابهام مورثا الشكوك محوجا العقول الى الكشف فابان سبحانه ان في الوحي ما هو محكم وما هو متشابه يرجع منه الى المحكم المفهوم فللعقول فيه جولان وللنفوس فيه موازين بها يزنون الحق ويعرفون مواضع الخطأ من القول ولم يذكر سبحانه محكما ومتشابها في العالم الطبيعي فانظر كيف ذكر علم العموم وعلم الخصوص وابان المحكم والمتشابه من الاول ولم يبينه في الثاني وانا الآن ابين لك ما قصه الله من المحكم والمتشابه في القرآن ثم اقفى على آثاره بالمحكم

---

(٥٩) الحج آية ٤٠ .

(٦٠) طنطاوي جوهري وتفسير الجواهر جـ ١ ص٣ وسأرمز له بجوهري ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ط٢ ـ القاهرة .

والمتشابه من أفعاله في السماء والارض للعقول والافهام فيها انا اذ ابين لك الامرين لتقف على الجمال والبهاء والحسن والكمال والابـداع والغرائب والعجائب وستطلع أيها الذكي في هذا المقام على جمال الطبيعة وكيف انتظمت الكائنات الحيوانية والنباتية والمعدنية وكانت سلسلة واحدة منظمه متناسقة لا خلل فيها ولا عوج)[٦١] .

وقد ظل يتحدث عن تفسير هذه الآية وقسم التكوين الحيائي للنبـات والحيوان والصخور فذكر الدور الاول تكوين الارض ثم العصر النباتي ثم العصر الحيواني وذكر أنواع الحيوانات وصنفها الى سـتة أصناف اللافية والمفصلية والهلامية والشعاعية والكثيرة الارجل والسافلة وقد بلغ من اطالته ان الآية بلغ في تفسيرها على هذا النمط من ص ٤١ــ٤٥ وتصور أن ما ذكره يعتبر ايجازا في نظره فلو أسهب فماذا سيحصل حيث يقول (كل ذلك سأشرحه لك شرحا وجيزا كافيا وتطلع على آراء الامم الحاضرة موجزة ملخصة مفهومة واضحة فتسكن نفسك للحقائق وتعلو على مصاف اولئك الذين يدعون العلم العصري وهم عن جماله مغمضون وعن محاسنه ساهون)[٦٢] .

هذا وقد تحدث عن التفسير العلمي للآيات باحثون منهم الدكتـور محمد جمال الدين الفندي الذي نهج نهجا فلكيا واستطرد استطرادات كثيرة وأورد نظريات علمية لا يعول عليها في عالم الحقيقة وذلك في كتابه « مـن الآيات الكونية في القرآن الكريم » وقد تحدث صاحب كتاب القرآن والعلم الاستاذ أحمد محمود سليمان الذي حذر من الجري وراء النظريات العلمية ومع هذا فقد وقع فيها وتحدث عن تطور المخلوقات فيقول « ثم تطورت تلك الزواحف فنشأت منها الطيور التي تسير على رجلين ثم تطورت الطيور الى حيوانات ثديية تسير على اربع»[٦٣] وكذا ما ذكره صاحب كتاب (القرآن

---

(٦١) المصدر السابق جـ١ ص٤١ ــ ٤٢ .
(٦٢) جوهري جـ ١ ص ٤٢ .
(٦٣) أحمد محمود سليمان ــ القرآن والعلم ــ القاهرة ــ ط١ ص ٦٥ .

والعلم الحديث) السيد عبدالرزاق نوفل الذي افاض في تفسير آيات تخص علمه الزراعي وغيره وخالف أحاديث صحيحة في تفسير الحسد وكذا فيحديثه عن حب الاعداء واحبوا أعداءَكم واستشهاده الكثير في أقوال اهل الكتاب في علم النفس والاجتماع وترجيحها على الاحاديث المعتمدة(٦٤) .

المعارضون للتفسير العلمي :

بعد ان أوردنا آراء مؤيدي التفسير العلمي والباحثين فيه اسهابا وايجازا نورد آراء المعارضين وحججهم لنتبين الحقيقة التي يطلبها كل عالم مسلم .

الامام الشاطي :ـ يعتبر الامام الشاطي علما من أعلام الاصول وكتابه المعروف « الموافقات » مصدر مهم في الدراسات العميقة في هذا العلم ويعتبر هذا الامام من أشد المنكرين للتفسير العلمي في كل صورة وقد اورد ادلة كثيرة لدعم رأيه فقال بعد ذلك (ما تقرر من ناحية الشريعة وانها جارية على مذاهب اهلها ـ وهم العرب ينبني عليه قواعد منها ـ ان كثيرا من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد فأضافوا اليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم (الرياضيات من الهندسة وغيرها) والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون واشباهها وهذا اذا عرضناه على ما تقدم لم يصح والى هذا فان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ولم يبلغنا انه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعي سوى ما تقدم وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الاخرة وما يلي ذلك ولو كان لهم في ذلكخوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة الا ان ذلك لم يكن فدل ذلك على انه غير موجود عندهم وذلك دليل على ان القرآن لم يقصد منه تقرير شيء مما عمموا »(٦٥) .

---

(٦٤) عبدالرزاق نوفل ـ القرآن والعلم الحديث ـ القاهرة ـ ط١ ص٢٧ .

(٦٥) ابو اسحق الشاطبي ٧٩٠هـ الموافقات ج٢ ص ٧٩ـ٨٠ المطبعة الرحمانية بمصر .

والواقع ان الوقوف عند الآيات فيما كان واضحا ومشهورا وكانت هناك حقائق علمية يمكن ربطها بالآيات الكريمة فلا بأس ، وحجة الامام الشاطبي من امية الامة وعدم معرفتها بالعلوم العصرية وعدم خوض الصحابة رضى الله عنهم فيها كل ذلك لا يمنع من ايراد ما ذكرناه لان معاني الآيات اذا تتبعناها في العصور المختلفة نجدها تختلف مبنى ومعنى ، ايجازا واسهابا .

الامام محمد رشيد رضا :

ممن عارض التفسير الكوني والعلمي الشيخ محمد رشيد رضا حيث أنكر على من أشاع علم الفلك والرياضيات وغيرها في كتب التفسير فهو يقول (وقد زاد الفخر الرازي صارفا اخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على نحو ما كانت عليه في عهده كالهيئة الفلكية اليونانية وغيرها وقلده بعض المعاصرين بايراد مثل هذا من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والارض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصد قرّاءها عما انزل الله لاجله القرآن»[٦٦] ومع هذا فهو يذكر بعض الآيات القرآنية ويفسرها تفسيرا علميا فيبدو انه أنكر على أهل الفلك والنبات والحيوان ما ذكروه ظنا وتخمينا من غير تحقيق فهو يقول في قوله تعالى (وارسلنا الرياح لواقح) (كانوا يقولون فيه انه تشبيه لتأثير الرياح الباردة بما يكون سببا لنزول المطر بتلقيح ذكور (الحيوان)[٦٧] النبات لاناثه ولما اهتدى علماء اوربا الى هذا وزعموا انه مما لم يسبقوا اليه من العلم صدع بعض المطلعين على القرآن منهم سبق العرب اليه قال مستر (اجينزي) المستشرق الذي كان استاذا للغة العربية في مدرسة اكسفورد في القرن الماضي ان أصحاب الابل قد عرفوا ان الريح تلقح الاشجار والثمار قبل ان يعلمها أهل اوربا بثلاثة عشر قرنا)[٦٨] .

---

(٦٦) محمد رشيد رضا المنار ج ١ ص٧ .

(٦٧) أخطأ الامام محمد رشيد رضا في ذكر الحيوان والصحيح (النبات) .

(٦٨) المصدر السابق ج ١ ص٢١٠ .

الشيخ أحمد مصطفى المراغي :ـ

وقـــد عرف بتفسيره القرآن ودروســـه المتتابعة وقد كان له تفسير سمي باسمه ويبدو انه يرى رأى من سبقه في عدم ربط الآيات القرآنية بفرضيات محتملة لم تثبت بعد ونحن في غنى عن ذلك (وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والاحكام الفقهية ووجد عندهم مرض اخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع اليها وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها وذلك خطر عظيم على الكتاب فان للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى) .

والنظريات التي لم تستقر لا يصح ان يرد اليها كتاب الله[٦٩] .

وقد فسر الآيات الواردة في المسائل العلمية مثل قوله تعالى (خـلق السموات بغير عمد ترونها والقى في الارض رواسي ان تميد بكم وبث فيهـا من كل دابة وانزلنا من السماء ماء فانبتنا فيها من كل زوج كريم)[٧٠] .

سيد قطب :

وممن تنبه الى خطورة الاستفاضة المضطردة في التفسير العلمي للقرآن الاستاذ سيد قطب حيث اثبت رأيه في كتابه « في ظلال القرآن » من ضرورة ترك العلم ينمو ويزدهر ويخدم الانسانية في الخير ويكتفي بالاشارة الى عظيم خلق الله في الكون بايراد الحقائق العلمية دون النظريات المتغيرة فهو يقول في قوله تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق الله ما يشاء ان الله على كل شيء قدير)[٧١] فيقول (وهـــذه الحقيقة الضخمة التي يعرضهـــا

---

(٦٩) احمد مصطفى المراغي ـ الدروس الدينية القاهرة ـ ط ١ ص ٤٢ .

(٧٠) سورة لقمان الآية ١٠ .

(٧١) سورة النور آية

القرآن بهذه البساطة حقيقة ان كل دابة خلقت من ماء تعنى وحدة العنصر الاساسي في تركيب الاحياء جميعا وهو الماء وقد تعني ما يحاول العلم الحديث ان يثبته من ان الحياة خرجت من البحر ونشأت أصلا في الماء ثم تنوعت الانواع وتفرعت الاجناس ولكننا على طريقتنا في عدم تعليق الحقائق القرآنية الثابتة على النظريات العلمية القابلة للتعديل والتبديل ولا نزيد على هذه الاشارة شيئا مكتفين باثبات الحقيقة القرآنية وهي ان الله خلق الاحياء كلها من الماء فهي ذات أصل واحد ثم هي كما تراها العين متنوعة الاشكال منها الزواحف تمشي على بطنها ومنها الانسان والطير يمشي على قدمين ومنها الحيوان يدب على أربع كل اولئك وفق سنة الله ومشيئته لا عن فلتة ولا مصادفة (يخلق الله ما يشاء) غير مقيد بشكل ولا هيئة فالنواميس والسنن التي تعمل في الكون قد اقتضتها مشيئته الطليقة وارتضتها (ان الله على كل شيء قدير)(٧٢) وقد كتب البعض في هذا الموضوع وفسروا بعض الآيات القرآنية تفسيرا علميا صحيحا من أمثال الاستاذ محمد أحمد الغمراوي والاستاذ علي فكري أمين وغيرهما .

وهكذا نجد اخرين سلكوا مسلك المعارضين في تفسير القرآن في البعد عن النظريات والوقوف عند الحقائق والاشارة الى ابداع الله في خلقه من غير طغيان تفاصيل العلوم وظنيات الفلك على الآيات ومعانيها .

من ذلك كله نستطيع ان تثبت بعض القواعد التي يهتدى بها في التفسير العلمي :

١ ــ معرفة الحقيقة الثابتة من ان القرآن الكريم كتاب هداية وتشريع .

---

(٧٢) سيد قطب في ظلال القرآن ج ١٨ ص ١١١ــ١١٢ دار احياء التراث العربي بيروت .

٣ ـ التثبت من الحقائق العلمية والاهتداء بها في اظهار حكمة الله في بيان علوم الكون .

٣ ـ لا بد لمن يتصدى للتفسير العلمي ان تتوفر فيه شروط المفسر أولا والعلم اليقيني بالعلم الطبيعي الذي وردت الآية بحقائقه .

٤ ـ الاقتصار على القواعد العامة والايجاز بذكرها دون الاطناب والاسهاب .

٥ ـ ابعاد القرآن الكريم ابعادا كليا عن النظريات والفرضيات المحتملة التي أوردها العلماء قديما وحديثا .

٦ ـ التقيد في التفسير بما ورد من آيات تفسرها ونصوص صحيحة من السنة وأقوال الصحابة رضي الله عنهم والمشهور من اللغة وعدم صرف النظر عن النصوص الشرعية من أجل رأي لبعض العلماء من الغرب والشرق لان ذلك خروج على قواعد الشرع واصوله وبعد عن معاني القرآن الكريم .

وارجو الله ان يوفق علماء المسلمين الى بيان كتاب الله العزيز بيانا علميا يزيد المؤمنين ايمانا ويعيد الصادين عنه الى حظيرة الايمان وحقائق الاسلام .

والله الموفق للصواب

المراجـع

المراجع العربية المُعَرَّبة

١ ـ ابن الجوزي ـ الموضوعات ـ تحقيق عبدالرحمن محمد عثمان نشر محمد عبدالمحسن ـ المدينة المنورة ط١ .

٢ ـ ابن قيم الجوزية ـ مفتاح دار السعادة ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت .

٣ ـ ابن منظور ـ لسان العرب ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٥٥ .

٤ ـ أحمد محمود سليمان ـ القرآن والعلم ـ القاهرة ـ ط ١ .

٥ ـ أحمد مصطفى المراغي ـ الدروس الدينية ـ القاهرة ط١ .

٦ ـ سيد قطب ـ خصائص التصور الاسلامي ـ مكتبة وهبة ـ القاهرة ط١ .

٧ ـ سيد قطب ـ في ظلال القرآن ـ دار احياء التراث العربي ـ بيروت ط٥ .

٨ ـ السيوطي ـ الاتقان في علوم القرآن ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهرة ط٣

٩ ـ السيوطي الاكليل في علوم القرآن ـ مصطفى البابي الحلبي ـ القاهـرة ط١ .

١٠ـ الشاطبي ـ الموافقات ـ المطبعة الرحمانية بمصر ط١ .

١١ـ طنطاوي جوهري ـ الجواهر في تفسير القرآن الكريم ـ مطبعة مصطفى البابي ـ القاهرة ط٢ .

١٢ـ عبدالرزاق نوفل ـ القرآن والعلم الحديث ـ القاهرة ط١ .

١٣ـ علي حسب‌الله ـ اصول التشريع الاسلامي ـ القاهرة ط١ .

١٤ـ الغزالي ـ جواهر القرآن ـ منشورات دار الافاق الجديدة ـ بيروت ط١ .

١٥ـ فخرالدين الرازي ـ مفاتيح الغيب ـ المطبعة البهية المصرية ـ القاهرة ط١ .

١٦ـ فرانتز روزنتال ـ مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ـ ترجمة انيس فريحة ـ دار الثقافة بيروت ط ١ .

١٧ـ الفيروز ابادي ـ القاموس المحيط ـ مؤسسة فن الطباعة ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة ط١ .

١٨ـ محمد حسين الذهبي ـ التفسير والمفسرون ـ دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ط١ .

١٩ـ محمد عبده ـ الاسلام دين العلم والمدنية ـ القاهرة ط١ .

٢٠ـ محمدعلي يوسف ـ الجفوة المفتعلة بين العلم والدين ـ القاهرة ط١ .

٢١ـ محمد رشيد رضا ـ تفسير المنار ـ دار المنار ـ القاهرة ط٤ .

٢٢ـ المشير احمد عزت باشا ـ الدين والعلم ـ ترجمة وتصحيح عبدالوهاب عزام ـ القاهرة ط١ .

المراجع الاجنبية :

Patrick Hanks, Ed. (Encyclopedic World Dictionary (Lebanin)